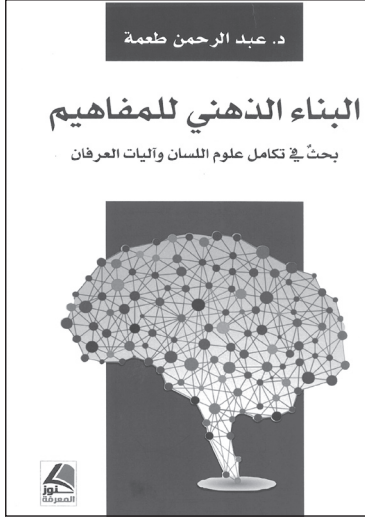


البناء الذهني للمفاهيم: بحث في تكامل علوم اللسان وآليات العرفان



تأليف: عبد الرحمن طعمة

مراجعة: نعمان بوكرة

قسم اللغة العربية، الكلية الجامعية،
جامعة أم القرى المملكة العربية السعودية
الناشر: دار كنوز المعرفة
العلمية، عمان، 186 صفحة.

شكّلت العلوم العرفانية والعصبية ثورة كوبرنيقية في العالم الحديث مع مطلع القرن الحالي من حيث اقتحامها لمجاهيل الدماغ البشري ومحاولة تفسير عملياته الذهنية المتحكمة في المعرفة إنشاءً وتحليلًا ونقلًا، ولم تكن اللسانيات بوصفها علمًا باحثًا في اللغة إنتاجًا وفهمًا وتداولًا بعيدة عن هذه الثورة، هذا إن لم نقل إن أسّلتها في المعرفة اللسانية كانت من أسباب قيام وتطور هذه العلوم المعينة ذاتها، وقد تلقى مؤخرًا بعض اللغويين العرب هذه التطورات العلمية المهمة، والمهتمة بالبناء العصبي للغة وآليات اشتغاله العرفانية؛ مما يظهر في مجموعة بحوث متخصصة نشرت في العدد 100 صيف 2017 من مجلة فصول بعنوان "الإدراكيات"، وعلى الرغم من وجود وعي علمي بهذا المجال متعدد الاختصاصات منذ

ISSN : 1026-9576

DOI : 10.34120/0117-039-154-008

أزيد عن أربعين سنة في الجامعات العربية إلا أن تطور الكتابة فيه ما يزال محدوداً، والخبرة بتفاصيله في المنجز المكتوب بالعربية هزيلة لعدة أسباب يطول شرحها، ومع ذلك فلا نعدم حضوره في بعض الكتابات التأسيسية للسانيات الإدراكية والعصبية في الثقافة الناطقة بالعربية مؤخراً، نقلاً وشرحاً واستثماراً؛ وذلك قصد الإسهام في تشييد تصورات نظرية تمهيدية تعرف القارئ العربي بما جد من بحوث في هذه الصعد، ولعل من أبرز الدراسات الجامعة، التي نعدها في زعمنا تأسيساً للكتابة اللسانية التمهيدية المتخصصة للسانيات العصبية العرفانية دراسة عبدالرحمن محمد طعمة، الصادرة سنة 2017 عن دار كنوز المعرفة الأردنية، والموسومة بـ: "البناء العصبي للغة، دراسة بيولوجية تطويرية في إطار اللسانيات العرفانية العصبية"؛ حيث سمحت بإلقاء الضوء على أهم النظريات والفرضيات المتصلة بحدث اللغة نشأة وضرورة من وجهة نظر بيولوجية عصبية وإدراكية، كما تعد مهاداً نظرياً لصاحبها لكي ينخرط في مشروع علمي جدير بالانتباه، عبّر عنه بثلة من البحوث والدراسات المختلفة، لعل من أبرزها مؤلفه "البناء الذهني للمفاهيم، بحث في تكامل علوم اللسان وآليات العرفان"، الصادر عن الدار نفسها سنة 2019، وهو مؤلف يؤسس في نظر صاحبه وقارئه إلى قراءة معرفية ذات سمة موسوعية متعددة الاختصاصات، هدفها تثوير الخطاب البلاغي المنجز في اتجاه تعددية القراءة وافتتاح الدلالة، وفي هذا السياق التحليلي يصبو المؤلف إلى تقويم الخطاب البلاغي العربي منطلقاً من أنموذج محدد يمثل مرحلة النضج النظري والإجرائي، ذلكم هو أنموذج حازم القرطاجني، معتنياً بقضايا المعنى، وسبل إدراكه، وتحليله ضمن نسق معرفي تراثي أصيل، منفتحاً على علوم اللسان الحديث والمعرفة العصبية المستجدة، ضمن ما بات يعرف باللسانيات العصبية والعرفانية (الإدراكية).

يدلف المؤلف بعد تحديد الإطار والأهداف والغايات إلى الموازنة بين رؤيتين تراثيتين تقاربان المعنى من زاويتين متباينتين نسبياً؛ هما: أ- رؤية الجرجاني القائمة على التمييز بين المعاني الأوائل والثواني من حيث الأصالة والفرعية؛ فبينما تتكون المعاني الأول في مستوى الدلالة المباشرة للكلمة يقصد إلى المعاني الثواني المومئ إليها بسابقتها لتكوّن مقصد الخطاب وغاية الدلالة الكبرى. ب- وأما رؤية القرطاجني؛ فتوجه المعاني

الأول إلى مقتضى القول حيث يكون مقصد الكلام وأسلوبه يقتضي ذكرها، بينما لا يقتضي بناء الكلام على المعاني الثواني (منهاج البلغاء، 23-24)، وهذا التصور في زعم المؤلف هو الأقرب إلى المفاهيم العرفانية المعاصرة، من حيث بناؤه على صياغة المعاني القائمة في حدث التفكير لفظياً (الوجود في الأذهان)، وفي حدث البيان والتعبير (الأعيان) ضمن علاقة مباشرة قائمة على وسيط التخيل (طعمة، 15)، وفي سياق متصل يمكن الحديث عن الصلة التي أقامها القرطاجني بين مقبولية الشعر ومعيار الغرابة عبر المحاكاة والتخيل في ضوء تعريفه للشعر الرديء، متأثراً في ذلك التصور ثلاثي الأبعاد (التخيل، المحاكاة، الغرابة) بأراء فلاسفة الإسلام؛ مثل: ابن سينا وابن رشد، ومن شايعهما، ولعل هذا التأثير هو الذي قاد إلى تشييد رؤية مركزية لتداولية المعنى وتواصلية، وتوجيهها وجهة ذهنية عرفانية توجد قناة من الانفعال المستمر غير المحدود بين النص ومتلقيه، فالغرابة -مثلاً- بوصفها مفهوماً نفسانياً متظلاً بتصورات فرويدية تزداد احتمالية حدوثها في حدث التواصل بوقوع نوع من القطع بين ما هو متوقع، وبين ما هو متخيل، وخلق هذه المنطقة الفاصلة بين الواقعي والخيالي هو الذي يعطي للشعر سماته التعبيرية المتفردة.

كما يشيد المؤلف بتداولية المعنى الشعري المتخيل والغريب عند القرطاجني مما ينسجم مع بعض التصورات العصبية والعرفانية الحديثة التي تشدد على الصفة الاستعارية المزجية للدماغ، حيث تظهر وظيفة الخلط الفريد للعناصر الوجودية قصد بلورة المعاني والدلالات المرتبطة بها، المفهوم العرفاني التداولي للمعنى عند القرطاجني محصل من خلال استعارة الصورة الذهنية المدركة عن الشيء العيني في الذهن، التي يستعار لها اللفظ أداة للتعبير عنها واستدعائها وقت الحاجة من دون اشتراط التطابق بين الصورة المستدعاة مع العالم الخارجي، ومما ينبغي التذكير به ذلك الانسجام المفهومي للتصور المعين مع تصورات مشابهة نجدها عند الغزالي وابن سينا تمثيلاً لا حصراً.

إن الاشتغال الذهني الذي يعمل على صياغة المدرك الحسي إلى مدرك ذهني مجرد تحصيل للمعنى الذي يمثل إعادة صياغة تلك المدركات هو الذي يعطي المفهومي المحاكاة والتخيل قيمة عرفانية تداولية في التصور الحازمي، ويجعل من عملية بناء المعنى الإدراكي بحثاً جديداً للتصورات المدركة عن ماهية الشيء، ومن ثم أمكن تحصيل العبارة لتكون

دليلاً عليها في اللسان، وتحت إشكالية العلاقة الجدلية بين المحاكاة وتوصيل المعنى يناقش المؤلف موقف القرطاجني من زوايا عدة (طعمة، 22-25)، لعل أبرزها:

- 1 - طبيعة العلاقة المعرفية بين الواقع والمثل من وجهة نظر أفلاطونية، وتأسيسها على فعل المحاكاة.
- 2 - الإدراك المعرفي الأرسطي للحقائق يكون بالألفاظ المختلفة الدالة على المعاني الثابتة من حيث الوجود العيني لها.
- 3 - خصوصية الدلالة اللفظية في ارتباطها بخصوصية الوضع و العرف ينفي الحاجة إلى محاكاة حقيقة الشيء.
- 4 - إن الحرف اللغوي هو وحدة دينامية صغرى تحمل مكنون الطاقة البشرية في التعبير عن الصوت الطبيعي عن طريق التخيل و المحاكاة، ولا سبيل إلى التعبير عن التجربة الحقيقية إلا بهما تعبيراً تقريبياً عن الإحساس الأصلي للتجربة المعيشة.

لقد دخل القرطاجني بكفاية معرفية عالية عالم الريادة التراثية - كما يقول المؤلف - في مجال ما أسماه بحقل البنيات المعرفية شديدة التداخل، وتأكيداً لهذا التصور يعرج طعمة على تصور القرطاجني لعملية التلقي وآليات التواصل الناشئة ضمن الأنظمة الدلالية والإشارية المختلفة، من خلال عرض الأسس التخيلية العامة للدلالات والإشارات المتمثلة في: الخط والرسم والكتابة والإشارة، حتى يصل تصوره إلى تشبيه المسموع بالبصري بسبب إبداعه وتخطيه من التجريد المحض إلى المحسوس، وتقريب المجرد إلى النفس والذهن (طعمة، 29).

ميز القرطاجني بوضوح بين مفهوم المعاني الذهنية ومجالها الدلالي والوجود العيني الحسي لها في إطار عرفاني قريب مما تناقشه العلوم المعرفية العامة، وبخاصة في موضوع العلاقات التركيبية العصبية وميكانيزمات التريبط والحفظ والاقتران والاسترجاع، ومن أمثلة هذه المفاهيم الذهنية المبنية داخلياً المقولات النحوية والعلاقات اللغوية؛ مثل:

الإتباع والإسناد والجر إلخ، (طعمة، 30) ؛ مما يمكن رده إلى أصول نظرية فطرية بيولوجية متقومة في الجنس البشري على حد تصور مدرسة تشومسكي اللسانية في بعدها العرفاني .

كما يشير المؤلف إلى وجود نوع من التناسب الفكري لنظرية حازم الخاصة بالمفاهيم الذهنية و أمثلتها في النسق اللساني المجرد ونظرية ديكرات التي تنص على أن تأويل العالم مبني جزئياً على أنساق تمثيلية متأتية من بنية الذهن ذاته، ولا تعكس العالم الواقعي مباشرة، كما أفاد القرطاجني من وظائف نحوية مهمة؛ مثل : الإسناد والإتباع في التنظير الجمالي منطلقاً من المعاني الذهنية؛ مما يمكن عده تصوراً سابقاً لعصره في تأسيس البلاغة العربية (طعمة، 31)، وهذا الإدراك العام لجوانب المسألة البلاغية وتداخلاتها العرفانية جعله يفصل بين المعاني المتصورة ذهنياً عن الأشياء من حيث هي ذوات لهذه المعاني، وبين الصور ذاتها من خلال التخيل الشعري و الإقناع الخطابي اللذين يهدفان إلى تحقيق الاستمالة المنشودة لفني القول الشعري و الثري، فكثيراً ما نفرا من الحسن، وأغربا بالقبیح، وخطا العالی ورفعا الوضیع!!، وفي سبيل توضیح ذلك یضرب المؤلف أمثلة من قوانين الأبنية التداولية للمعنى عند القرطاجني، كالتناسب و التلاؤم و تجنیس الأغراض (ارتیاح، اكرتات . . . إلخ) و الاقتران (تماثل، مناسبة، مطابقة، مخالفة، تشافع، حقيقة و مجاز)، و مما حرص على عرضه في سياق تأصيل النظرية القوى الفكرية أو الكفایات التي اشترط القرطاجني؛ تحققها لدى المبدع لإنشاء القول الشعري، وهي :
 أ- القوة الحافظة (الكفاية اللسانية)، ب- القوة المائزة (الكفاية التداولية)، ج- القوة الصانعة (الكفاية الموضوعية)، كما عرض إلى أربع قوى فكرية أخرى تمثل تبياناً للقوة الصانعة (الكفاية الموضوعية)، وهي : أ- القوة على تصور کلیات الشعر ومقاصده ومعانيه المتحكمة في بناء فصول القصائد، ب- قوة تصور صورة القصيدة من حيث ما ينبغي أن يكون في المطلع والفصول والخاتمة، ج- القوة على ملاحظة الوجوه التي يقع بها التناسب المعنوي، د- القوة على تحسين وصل بعض الفصول و إصاق الكلام على الوجه الذي تقبله النفس (طعمة، 37-38).

مما ينبغي التنبيه عليه- أيضاً- حديثه عن مفهومات تتعلق بالتماسك النصي، مثل :

الترتيب النظمي ومفهوم الانتهاء ، وإستراتيجية عرض الحجج ، فالعبرة ليست في الحجة ذاتها ، بل في طريقة عرضها مرتبة ضمن صياغة تعبيرية جذابة .

إن مفهومات أساسية في الانسجام النصي مهم جداً عرضها في هذا السياق لإدراك تصور القرطاجني في تلقيه للشعر ، منها ؛ تناسق الفصول وترابطها وما يتطلبه الأمر من استقصاء وترتيب وإيراد للمعاني الجزئية ؛ مما ينعكس إيجاباً على البنية الكلية للخطاب ، ومنها تجويد النهايات ؛ إذ هي آخر ما يتلقاه المتلقي ، وأكثره رسوخاً في ذهنه ، شريطة أن يُحسّن بناؤها ، فتقرع السمع بما يطول أثره في النفس ، ومن أدوات ذلك : التحجيل وحسن الاختتام ، حيث يضيفي سمة تداولية عليها ، ومن المهم أن ترتبط الخاتمة بما قصد إليه المبدع ، فلا يكون تأثيرها فيما قبلها من المعنى تأثيراً سلبياً . وترسيخاً لهذه المفاهيم يلجأ المؤلف إلى تحليل أمودج نصي شعري مقارب من زاوية حازمية ، تديلاً على تقارب المعاني ، وتمكنها من خلال تحليل أبيات الفرزدق وابن هرمة ، وإمكان تركيب بعضها على بعض على سبيل التشبيه ، منطلقاً من رؤى نقدية تبناها القرطاجني وأعانه عليها العلوي وابن طباطبا ، ومعارضة ذلك النظر النقدي بأخر يتبناه من المحدثين البلاغي أبو موسى ، والذي لا يرى إمكان التركيب بينها بسبب اختلاف المعنى المصور (طعمة ، 42) ، وفي القسم الأخير من رحلة البحث عن المعنى ينقلنا المؤلف إلى محطة حازمية أخرى وسمها بـ : " جدلية الأنساق المفهومية ، وتوصيل المعنى بين أفقي المحاكاة و التخيل " ، مستكشفاً قضايا أخرى يمكن إجمالها في الآتي :

- 1 - وظيفة المحاكاة هي تشكيل المعطيات الدلالية في المخيلة الذهنية للمبدع في صور جمالية مائزة عن عالم الواقع المادي ، وهذه الصور من شأنها أن تنشئ الإيهام المحفز للانفعال الجمالي في عملية التلقي .
- 2 - التمييز بين التخائيل الأول و التخائيل الثواني هو صنو للتمييز بين المعاني الأول والمعاني الثواني .
- 3 - التخيل عمل قائم في ذهن المبدع و المتلقي كليهما يمثل البيئة ذاتها ، وأما التخيل فأداة حركية حافزة حال اشتغال الذهن ؛ فالتخيل قائم بالديمومة والضرورة

والتخيل فاعل تداولي بالضرورة على حد زعم المؤلف خلال الاشتغال بعملية التلقي الانفعالية .

4 - التمييز بين العبارة التعبيرية والتقريبية الوصفية التصويرية من وجهة نظر الوضعية المنطقية؛ مما يشرح وظيفتين رئيسيتين للغة، هما الوظيفة العلمية والانفعالية .

5 - ليست المحاكاة الفنية مجرد تصوير للواقع بقدر ماهي عمل ذهني استعاري، تبرز فيه صورة الوجود بعناصر العقل الباطن، مع ما يكتنفها من معرفة عميقة تتيح الممكن والمفترض والكلبي (طعمة، 45-49) .

ويدعو المؤلف في ختام هذا المبحث إلى إعادة قراءة الخطاب النقدي الحازمي في ضوء إمكانات التلاقي النظري والإجرائي بين التصور البلاغي التراثي بعامة ونظرية القوطاجني فيما يتعلق بتجلياتها الجمالية والفلسفية والعرفانية واقترب أطروحاتها الأساسية من التداوليات المعاصرة، وبخاصة نظرية بول غرايس وأوستين وسائر فلاسفة اللغة؛ قصد تأصيل ما يسميه بلاغة عرفانية تراثية تداولية عامة في صميمها (طعمة 49-56) .

يقوم الفصل الثاني من الكتاب على تحليل الأساس العصبي العرفاني لبنية المفاهيم الذهنية، ويستغرق حوالي ثمان وأربعين صفحة من المساحة النصية، خصصت للتنظير رأساً، مع قليل من التمثيل، ولعل أهم التصورات المنبجسة من رؤية المؤلف محصلة فيما يأتي:

1 - افتتاح الحديث بمراجعة أهم الرؤى المتصلة بالسؤال المعرفي الجدلي حول أولية اللغة أو الكون في إنتاج الآخر و صياغته، أعني أيهما يسبق الآخر، ويشكله؟ هل اللغة هي التي تشكل رؤيتنا للعالم أو المعبر عنه بالوجود الذهني؟ أو العالم المحيط بنا هو من يشكل رمز اللغة ونظامها فتتغرس في أذهاننا؟

2 - السعي إلى محاولة فهم الطبيعة الدينامية للغة في طبيعتها الذهنية العصبية المركزية والمحيط الكوني الذي تتحرك ضمنه .

وتحت عنوان وسم ب: " نظرة تفصيلية إلى العلاقة بين تشكل المفهوم ودالته اللغوية "

يناقش المؤلف كيفية إدراك الدماغ للدلالات المحمولة بالكلمات في ضوء رؤية كلية (جشطلتيية)، و أخرى جزئية مفادها الأجزاء قبل الكل المترابط، مستدعياً بعض الأنظار الحديثة كنظرية الطراز عند روش ونظرية الاشتقاق (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني) عند العرب وفرضية المثال المرجعي الأثمدجي ونظرية الحقول الدلالية في سبيل فهم طبيعة المفاهيم المتمركزة في الدماغ واختلاف تفاصيلها تبعاً لارتباطاتها الثقافية والاجتماعية المفارقة والمتحكمة في تمثيلية الفئة للجنس ذهنياً.

أما عن وظيفة المعرفة في التعبير عن العالم، فتبدأ بعرض رأي اللساني إميل بنفست (ت1976) حول الطبيعة الانعكاسية للمقولات الذهنية والقوانين الفكرية لنظام المقولات اللسانية وتوزيعها (اللغة تشكل صورة الفكر)، وقد أثبتت دراسات وتجارب معاصرة التأثير الكبير للغة على الذاكرة والإدراك والفكر دون أن يكون هذا الأخير تبعاً ونتاجاً مباشراً لها، ولاتساعه ومحدوديتها من جهة ثانية، بل إن العقل - كما يرى لايكوف- يستوجب أسبقيته لها، ومثاله في ذلك أئمدج حيوان أكل النمل (النضناض)، هذا، ويميل المؤلف إلى موقف وسطي يرى تركز اللغة والفكر في المستوى ذاته من التأثير والتأثير الذي يجعل المفاهيم جزءاً من مفردات اللغة بخاصة في مستواها التفاعلي ثقافياً واجتماعياً وذهنياً، وكأننا أمام رؤية سوسيرية تؤمن بكونهما وجهتين لعملة واحدة، كما يلفت البحث الأنظار إلى منطقة تربيط المفاهيم اللفظية الكائنة عند التقاء فصوص المخ الثلاثة (الصدغي، الجداري، الخلفي).

إن تكييف الدماغ للمفاهيم وفق تحقيقاتها الوجودية متصل بما تقدمه البيئة الثقافية من جهة وقابلية الدماغ للتكيف بالنظر إلى طبيعته المطاطية، وقدرته على التعلم الذاتي إلى الدرجة التي تحقق تكييف الحقيقة العلمية مع الحقيقة اللغوية بمكوناتها السياقية العامة والخاصة، كما يعمد الكتاب إلى التمييز بين مصطلح المفهوم بمعنى الصورة الذهنية والمفهوم المقابل للمنطوق (الاستلزام الحواري) والمفهوم المقابل للماصدق (Intention)، (طعمة، 67) والذي يعني مجموع الخصائص والسمات اللازمة التي تدخل في تعريفه ك: إنسان: الذي هو مفهوم كلي ذهني يلخص السمات المشتركة بين كل الأفراد الفعليين، أما ما صدقه فهو الأفراد العينيون الموجودون بأجسامهم كزيد وعمرو... إلخ.

إن ما ينبغي التنبيه عليه أن التمييز المنطقي الحاصل الذي عرضه فريجه في الفلسفة الغربية معلوم ومتداول بوضوح في الكتابة الفلسفية والمنطقية العربية قبل ذلك بقرون ، كما أن إدراكنا للمفاهيم لا يكون بتجزئتها واختزالها إلى بنية تكوينية أولية ، مثل استعارة المفاهيم في قول الشاعر: يا أيها العلماء، يا ملح البلد، وإنما بتكييف الطبيعة العلمية واللغوية سواء كان الأمر متصلاً بالحسيات أم بالمجردات التي يخضع بناؤها الذهني إلى تراكم جملة من التجارب المادية لتحصيل أهم السمات الداخلة في بناء التصور العام في بيئة ثقافية ومجتمع لغوي معين (طعمة، 68) .

ينتقل المؤلف إلى محطة أخرى يعرض فيها إلى سبل اكتساب اللغة من حيث هي مفاهيم مولدة ذهنياً من خلال أنموذج الطفل ، وبتأثير من المقاربة الذهنية التي بشرت بها نظرية تشومسكي في ستينيات القرن العشرين يؤكد المؤلف أن الرضيع يولد مزوداً بخوارزميات لغوية تشكل جزءاً من البناء العصبي الذي يسمح بتعلم القواعد النحوية (طعمة، 71)، بل إن هذا التصور الطبيعي حقيقة إمبريقية داعمة لمسألة وجود نمط معين منشأ بالدماغ، ومن ثمرات هذا النظر القول بعدم إمكان اكتساب الكلمات قبل تشكل مفهوماتها الذهنية المتصورة عما هو حاصل في الواقع؛ مما يفسر السمة المطاطية للدماغ، وبعد ذلك ترسم الصور مقترنة بكلماتها، وتستدعى كذلك في غياب مسمياتها، وهذا ما يعطي الصفة الرمزية للكلمات والعلاقات الذهنية الرابطة بينها .

إن للدماغ، بخلاف الكاميرا، قدرة إبداعية خلاقية قائمة على التخيل في تصوير المحتوى ذهنياً، وتخزينه وإعادة إنتاجه في صور مختلفة فيما يعرف بألية بناء النماذج في الدماغ. كما يطلعنا المؤلف على وجهة نظر العلوم الإدراكية العصبية في مسألة الفرق بين اكتساب لغة ثانية بالنسبة إلى الأطفال والكبار (طعمة، 73)؛ حيث تتجهز الدوائر الدماغية بتوصيلات عصبية تسمح بسماع الأصوات الخاصة بلغة ما في الصغر، وكلما تقدم العمر لا يجد الدماغ داعياً لاستبقاء توصيلات تكشف أصواتاً لم يسمعها لغياب الحافز، فيقوم بتثبيطها (رؤية تطويرية بيولوجية)، إلا أن بإمكانه تنشيطها إذا تطلب الأمر ذلك بوجود الحافز البيئي، وطواعية الدماغ المطاطي طبعاً، وقابليته للتعلم، شريطة الاستفادة من مفاهيم " نوافذ الفرص " و " المرحلة الحرجة "، وهذه المفاهيم هي المثممة لأنواع التعليم

الجديد، التي تركز عليها العرفانية البيداغوجية في ميدان التعليم المرن والمبكر والذاتي (المنزلي).

تقوم النمذجة العصبية و التمثيل الرمزي للمفاهيم عند أنصار النظرية الطبيعية على واحدة و كلية البنية اللغوية الدماغية و عالميتها على حد وصف تشومسكي و أتباعه، و على كلية المفاهيم المتصورة عند البشر (طعمة، 74-77)، بينما تظهر النسبية في الاستعارات و أنظمة المزج التصوري المحددة للبارامترات الخاصة بكل نظام لغوي، و هو ما يقود إلى تميز اللغة الطبيعية المعبرة عن عفوية الاكتساب و سجية التواصل و القواعد النسقية المصطنعة في التوظيف الفصيح . كما يعرض المؤلف في سياق متصل إلى قضية " تعلم الجديد " ، فما هو في المحصلة إلا توليد و تفرع عن أوليات منشأة دماغياً، فالاعتقاد بأن ما نتعلمه جديد ليس جديداً صرفاً، بل هو نتاج نمو و تشابك لأوليات مغروسة سلفاً جينياً في بنية الدماغ، لكن إن كان هذا التصور مسلماً به و مقبولاً في عموميته على الأقل بالنسبة إلى الطبيعيين، فهو محط نزاع بل رد عند الكسبيين، و بالنسبة إلى اللسانيين العرب المناوئين للفرضية الطبيعية هناك توقف عند ظاهر قوله - سبحانه و تعالى - : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل، 78)؛ مما يعني انتفاء المعرفة قبل الوجود الخلقي الفعلي، إنها- بلا شك- مسألة خلافية محيرة!!

يقول المؤلف بأسلوب تقرير يعبّر عن قناعة طبيعية راسخة : " ما أقصده هو أننا جميعاً لدينا الحد الأدنى من هذه المفاهيم التي بتعقدتها و تشابكها تتطور البنية العصبية من دماغ طفل رضيع إلى دماغ عالم و نبي و ولي ... وهو أمر خاضع للطبيعة المطاطية للدماغ البشري، تلك اللدونة العصبية الشبيهة بتوسع الكون ذاته . . " (طعمة، ص 77).

يولد الإنسان مزوداً بكفاءة ذهنية، و استعداد مسبق لتعلم أية لغة، و التعبير بها عن مفاهيم و تصورات يشكلها دماغه، منطلقاً من مبدأ عالمية القواعد اللغوية و الأوليات الذهنية، ثم يتم التفاعل بين التمثيلات الدلالية و المعجمية و القواعد التركيبية لإنتاج اللغة في المستوى اللساني، ثم تتفاعل مع المعطى السياقي التداولي، فتنشأ عن هذا التفاعل الذهني المعقدة ظاهرة الكلام المكون من كلمات و جمل و نصوص و خطابات تتماهى بيولوجياً مع

ما يحدث على مستوى الشريط الوراثي، وتتابع الأحماض الأمينية وكودونات (DNA) لإنشاء الخلايا المتخصصة المكونة للأنسجة (طعمة، 77-79). كما يتطرق المؤلف إلى مسائل أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها، لعل أبرزها :

- أ- الطبيعة الرمزية الكونية الشاملة للغة، وسيطرتها بفضل هذه الصفة على سائر أنظمة التواصل الأخرى؛ مما يجعلها أصلاً وبقية فرعاً لها .
- ب- النظر إلى الذهن بوصفه برنامجاً معلوماً قالياً في بعده اللغوي .
- ج- إنشاء التمثلات الرمزية الخاصة بالمعارف، والكيفية التي تسمح بالعمل حول هذه التمثلات من مهام الذكاء الاصطناعي و السيكولوجي و اللسانيات، في سياق متداخل الاختصاصات .

أما إدراك الدماغ للنماذج الكونية و علاقته بتشكيل المفاهيم فحاصل بـ:

- 1 - المنظور الذي تحدده زاوية النظر و المعلومات السابقة .
- 2 - التحكم في الانطباع الأولي .
- 3 - قدرة الدماغ على تنظيم الإدراكات بوصفها كليات متسقة .
- 4 - قدرة الدماغ على التمييز بين الصور و الخلفيات .

وبعد مناقشة مستفيضة لهذه التصورات الجزئية يقرر المؤلف حقيقة غاية في الأهمية، لطالما ذهل عنها كثيرون، ألا وهي عجز الإنسان عن إدراك كنه العالم، وحقائقه مطلقاً، فما يدرك منه فعلاً إنما هو نماذج المخ عن العالم، وليس العالم ذاته (طعمة، 83).

وبخصوص الأرضية العصبية لتشكلات الوعي المفهومي بالمحيط الخارجي أو قشرة الدماغ يمكن التذكير بالطبيعة الحوسبية ذات الأسس الرياضية الذهنية التي تتصف بها في مستوى تحليل الروابط، وتنسيق عمليات التضمن المتكرر للعبارات المتداخلة، وبأسلوب أكثر وضوحاً يقول المؤلف: " قشرة مقدمة الفص الجبهي هي المسيطرة على ميكانيكا إنتاج التركيب اللغوي الملائم لطبيعة المفاهيم المخزنة والمستثارة والمنشأة في الدماغ البشري " (طعمة، 84).

ويشير المؤلف إلى أهمية الأطلس الدماغى الذى وضع باعتماد اللغة الإنجليزية، وإمكان تضافر الجهود لإنشاء أطلس دماغى عالمى للغات البشرية يهدف إلى تمثيل وإدراك الشبكة الدلالية المفاهيمية للدماغ البشرى، وبعد التعرّيج على المراحل التنسيقية للقشرة، ومختلف المراكز من خلال وصف الخطوات العصبية اللازمة يشير إلى كفاية هذا المنطلق التوليفى للعلاقات بين العلامات، الذى يسمح بتهيئة ودعم قوى الذاكرة للاستعارة وإعادة البناء والنمذجة عند الحاجة فى دورة عصبية مستمرة.

إن فحص البنية الدماغية ووظائفها عصبياً يجعلنا نستنبط ارتباط إنتاج اللغة وتحليلها ونمذجتها بالعمليات العرفانية المعقدة رياضياً ومفاهيمها، بل إن الشبكة المفاهيمية الخاصة بإنتاج أنماط الدلالة معقدة جداً تعقيد التلايف المخية، وتعقيد الكون نفسه، فيما تحاول اللغة التعبير عنه بصورة جزئية جداً؛ إذ ليس بإمكانها بلوغ منتهاه، لذلك ما يفتأ المؤلف يكرر على مسامع قرائه هذه الفكرة المصرة إصراراً شديداً على تعقيد العمليات اللغوية الدماغية فى بعدها العرفانى متماهية مع تعقيد بنية الكون العجيب. ثم ينتقل إلى الحديث عن المطاطية العصبية المثبتة لتشكّل مراكز لغوية غير متوقعة عند عدد غير قليل من الناس؛ مما يجعل من المعطيات اللغوية والمفهومية قابلة للتخزين فى نسخ عديدة فى أكثر من مكان عصبى، ودليل ذلك المصابون بالخلطات الدماغية والتنبيه الكهربائى الذى يفيد باحتمال وجود مناطق فى القشرة المخية الأمامية والخلفية تسهم فى المعالجة التحليلية والإنتاجية للغة، وهو ما يفسر سمة التوالد الذاتى للحدث اللغوى الذهنى فى الدماغ منظوراً إليه نظرة شاملة وظيفياً.

إن تخليق ورؤيتنا للعالم تتم بتألف الأنوية المعجمية الدماغية مشكلة البنية العصبية للمعجم الذهنى، مع ملء الفراغ الدماغى بما يراه متسقاً مع أحوال العالم ومنطق الفرد وخبراته، وتدعيماً لهذه التصورات العصبية المغرقة فى التخصصية يحاول المؤلف تقديم أنموذج تطبيقي لسانى لبحث آفاق الانفتاح الدلالي الموازى للبنية العصبية اللامحدودة والحاملة لمجمل المفاهيم و التصورات مستنجداً بأفكار تراثية، تمثلها نظرية النظم للجرجاني، وتصورات القرطاجنى السابق عرضها، بخاصة تصوره حول التخيل، ومطالبه المتعلقة بتأكيد صلة التعبير بالمعنى من ناحية التصور الذهنى (طعمة، 91).

إن الاستعارة التصويرية الممثلة للخلفية الدماغية تكشف عن مدى التعالق بين منظومة النحو و الدلالة من جهة وقواعد الاستعمال التداولي من جهة ثانية، وهذا ما ينسجم مع تلك الآراء القائلة بانفتاح النسق اللساني (اللغة نظام مفتوح)، وتأكيداً لهذا المعنى يستشهد المؤلف بالدلالة الزمنية للفعل العربي بسمتها الحركية حيث تنشئ اللغة للفعل دالتين زمنيتين تتعلق بهما دلالة صرفية صيغية افتراضية ودلالة نحوية مفتوحة على السياقين الداخلي والخارجي، مما يجعل الاقتران الذهني لمفهوم الزمن بالاستعمال مغايراً لقواعد المنطق أحياناً؛ والتي قد لا تنسجم مع مرونة الدلالة الزمنية التداولية في الخطاب، والحق أن هذا القسم معروف لدى النحاة القدماء؛ فعند سيبويه -مثلاً- تمييز صريح بين جهات الخطاب (الكلام) مؤسس على مفارقة التعبير للتصور الذهني و المدركات الحسية والمعنوية، وفي ضوء هذا التصور العام يقرر المؤلف خضوع التسييق المنطقي للمفهوم إلى قواعد تصورية ثقافية تغاير إلى درجة عالية حرية التعبير الكتابي ودوائره التي تجر مبرراتها في مجالات الإبداع الأدبي (طعمة، 95).

إن الفهم وإنتاج الدلالة متصلان بعملية ذهنية مركبة من عمليات فرعية، هي :
قواعد النحو + قواعد الدلالة + قواعد المنطق + قواعد الاستعمال؛ مما يستلزم تحديداً للمعنى .

كما تضمن الفصل تحليلاً إستيمياً للمفاهيم و التصورات اللسانية بناء على معطيات لسانية عصبية ومناهج العرفان، وذلك من خلال بسط مفهوم القياس القائم على أصالة الأصل و أوليته في مقابل فرعية الفرع و تبعيته في الفكر الإسلامي، وقيام هذا الأصل على لوازم، لكل منها رتبة محفوظة متميزة بعلامة دالة عليه (طعمة، 95-96) .

لقد طبق القدماء القياس - في نظر المؤلف - بحمل الأشياء على بعضها بغرض بيان التكافؤ بينهما في البنية مما ينتج كياناً اعتبارياً جديداً يعد جامعاً موحداً للعناصر اللغوية في الحكم، ويسمى باباً أو أصلاً أو حداً، ويتحقق ذلك بمراجعة ثلاثة شروط استلهمها المؤلف من عبد الرحمن الحاج صالح (رحمه الله) مؤسس النظرية الخليلية الحديثة، ويعد هذا الاستثمار النظري من لدن المؤلف من أبرز آثار النظرية الخليلية الحديثة في الكتابة اللسانية

العربية المعاصرة، التي لم تول أهمية معرفية لهذا اللغوي لعدة على الرغم من وجاهة كثير من التصورات المعروضة بين ثنايا نظريته المعينة. وهذه الشروط هي : أ- الانتماء إلى المستوى التحليلي ذاته، ب- الاشتراك في الترتيب نفسه وعدد الوحدات، ج- الاشتراك في الهيئة العامة المطردة (طعمة، 96)

إذن؛ فالباب النحوي على ما يقرره الحاج صالح ويؤكد طعمة هو المجموعة المطردة المتكافئة بالتعميم الرياضي من الأحداث والوقائع (الزمرة في الرياضيات)، وهو مخالف للقياس التحليلي الغربي (Syllogism) القائم على القياس اليوناني الاندراجي (قانون الاشتمال) (Classes)، الذي يمتاز باعتماده التقابل السماتي الناتج من علاقة الحضور والغياب. وعلى الرغم من أهمية التصور اللساني الذي عرضه الحاج صالح منذ سبعينيات القرن العشرين في مقارنة التراث الخليلي من زاوية نظر لسانية معاصرة إلا أن أغلب الكتابات العربية لم تنتبه إليه، ولعل هذه الدراسة من بين أندر البحوث التي نظرت في التصورات اللسانية المعينة. أما تحليل المفهوم الذهني فمرتبط - بحسب المؤلف - بقواعد الاستدلال المنطقي والاستنباط، وتأكيداً لذلك يعرف مجدداً بصياغات متقاربة مفاهيم إدراكية لغوية من قبيل "المفهوم" و"الفضاء الدلالي"، و"لوحة العالم اللغوية" و"الجشطالتيّة" و"القصد التداولي" (طعمة، 97-101)، في سبيل الوصول إلى نتيجة مهمة هي التمايز القائم بين المفهوم من حيث كليته والفضاء الدلالي من حيث خصوصيته المتأتية من ارتباطه بنظام علاماتي خاص في لغة معينة؛ والناظر في واقع اللغات معجمياً يجددها تباين في وجود ألفاظ ذات فضاءات دلالية خاصة لا توجد لها مقابلات مباشرة في لغات أخرى بسبب غياب المفهوم ذاته عند أصحاب تلك اللغة؛ مما ينشأ ما يعرف عند العرفانيين بالفجوات المعجمية التي تملأ بتوجيه من علامات الشرح والتعليم، والتي تكون سبباً في ظهور مشكلات في الترجمة والتواصل، كما تدخل مستويات اتصالية أخرى مثل لغة الإشارة في بناء تصورات ومفاهيم جزئية في لغة ما دون أن يكون لها مماثل في أخرى، ودون أن تكون هناك قدرة على تحليل ذلك الغياب، كما نبه المؤلف على ضرورة التمييز بين مفهومات لسانية إدراكية أساسية يكثر تداولها في التحليل اللساني للغات؛ مثل: اللكسيم والسيميم والفجوات المعللة وغير المعللة والسيماطة الكامنة (الاحتياطية)

(طعمة، 102-104)، خالصاً إلى أن الفروق الإدراكية بين هذه المفاهيم راجعة إلى الوعي الإدراكي والمعاني من حيث هي نواتج للوعي اللغوي تزول تدريجياً في الممارسة التواصلية حيث تسد فجوة غياب العلامات المفقودة بصياغة لكسيمات جديدة ينتجها الدماغ بناء على قواعد بنائية فيه تتحكم في صياغة المعجم الذهني، هذا، وختم الفصل بمجموعة من التوصيات أهمها :

- 1 - ضرورة اعتماد المحلل العصبي لمقاربة الفهم الخاص باللغة البشرية .
- 2 - اعتماد التحليل اللساني المرتبط بفهم وجودية الإدراك الحسي للموجودات ،
- 3 - مركزية التحليل الإستمولوجي للمفاهيم في ضوء العلاقة بين الدماغ والكون،
- 4 - ارتباط فهم الكلمات في اللغات بمدى فهم وجودية الجملة العصبية من خلال تشكل المفهوم بين علمي الحس والذهن،
- 5 - أسبقية الخلق المفاهيمي على الخلق التعبيري، من خلال تحليل التصوير الشعري وحدوده التخيلية (طعمة، 105-106).

أما الفصل الثالث الذي ارتضاه المؤلف تطبيقاً يمتحن فيه بعض أدواته العرفانية من حيث كفايتها التفسيرية لنوع خاص من الخطاب، هو الخطاب القرآني؛ فقد جعله مقاربة تحليلية للبلاغ التصويري القرآني، منه ينطلق لإثبات أطروحة مركزية شيد عليها المشروع كله، ومفادها أن القرآن يتضمن المداخل المفاهيمية الكلية لفهم الكون وإدراك منظومته الوجودية المتناسقة، ولن يتأتى هذا الفهم إلا من خلال إدراك الطبيعة المفاهيمية للجملة القرآنية (طعمة، 109)، وإعادة تنظيم تعليم القرآن الكريم ليعبر عن الحقيقة القرآنية التي سيكون لها أكبر الأثر في توجيه الضمير المسلم، وكأنه في عصر النبوة الأول، و على الرغم من ثبات لفظ القرآن وأصواته فإن الوجوه المعنوية المختلفة التي تحملها جملة ممتدة عبر التأويل زمنياً ومنسجمة مع تعقيد الحال والكون، فتفتح فهم وتصورات جديدة تعني كونية وشمولية لأفهام البشر عبر العصور. كما حاول المؤلف تأكيد البناء المفهومي المترابط لأي القرآن الكريم وسوره وقضاياها، وانسجام تصوراتها وتعاضدها؛ مما يؤكد إعجازه النظمي والفكري، وقد اعتمد في سبيل تأكيد الرأي تصورات القدماء ممن تصب رؤاهم في الانسجام القرآني، وفي هذه الرؤية القائمة على مبدأ الاقتران المفاهيمي والتناسب

الذي يجعله كالكلمة الواحدة والبناء الواحد (الزركشي، السيوطي، الشاطبي)، وهذا ما عرف بعلم المناسبة، وجعله بعضهم كصاحب "تناسب السور" أساساً لفهم الإعجاز وإدراك مكوناته اللسانية والبيانية والذهنية، وهي مكونات منسجمة مع التصور الكلي للكون من حيث الدلالة الشاملة للفظة القرآنية (طعمة، 110-114). ثم يعرج المؤلف على أقوال المفسرين في تفسير القسم بالعصر، مستثمراً جملة من التصورات الذهنية المهمة مثل: "دفع توهم التناقض" و"السياق المضيق" و"السياق الموسع" و"المناسبة المفاهيمية"، مع إبراز قيمة الزمن في الخطاب القرآني بخاصة، وفي حياة الإنسان عموماً، أما من حيث الموضوع فقد أبان عن احتواء السورة لثلاث لحظات دلالية مفاهيمية تستثير ذهنياً ثلاث لحظات إدراكية شعورية هي: أ- الحكم بالخسران، ب- لحظة التنفيس، ج- لحظة التبيين (طعمة، 117-18)، وقد بدا متأثراً بأنظار خالد فهمي وأشرف حافظ وعائشة عبد الرحمن وسيد قطب في استكناه دلالات السورة وقيمها العقدية والخلقية والروحية العميقة إلى درجة التبني. كما يعرض المؤلف تصور الكفوي في مقارنته للخطاب المعين من جهة حيويته المنتجة للمفاهيم المشروطة بالنية (القصد) لتحقيق الإفهام في مقام التواصل (طعمة، 120)، مؤكداً أسبقية هذا التصور على تصورات تداولية معاصرة كتلك التي قدمها بول غرايس في مبدأ التعاون الحوارية، إلا أننا ننبه إلى وجود خط بحثي يرفض تحميل تصورات القدماء وأنظارهم المسبقة بلحظة حضارية محددة ما لا تطيقه من تأويلات مؤسسة على المعرفة الغربية الحديثة لاختلاف الهدف والغايات والموضوع.

لقد حرص المؤلف على القول بالأسبقية في سياقات متعددة، محاولاً إلباس أفكار القوم حلة قشبية من تصورات المحدثين ومصطلحاتهم، يصف ويفسر ما تقادم بألة واصفة محدثة، تجتهد أحياناً في إعادة صياغة الفكرة القديمة لإعطائها بعداً علمياً صارماً، كما يستشعر المتلقي تغييباً لتصورات أسست وسبقت تصورات الكفوي في التمييز بين الكلام النفسي والحسي فيتوهم أصالتها عنده وهي ليست كذلك، فقد نشأ الجدل حولها في حاضنة عقدية مؤطرة بعلم الكلام.

يرتكز هذا القسم على أطروحة مستنبطة من كلام أبي البقاء الكفوي، تتمثل في

كون القرآن رسالة مطلقة متعالية على الزمان والمكان، متسمة بالشمولية المعرفية والأزلية الوجودية، وهي تدرك مع ذلك بحسب مقامات وفهوم أصحاب كل زمان ومكان، فالقرآن عند المؤلف - نص خطابي دينامي يتعالى على المحاكاة والتقليد ولغة البشر، على الرغم من نزوله بلغة بشرية تحدى الناطقين بها (طعمة، 122-123).

كما يعرض إلى جملة من التصورات الناشئة عن الخطاب، مبيناً أثرها المفاهيمي في المتلقي في ضوء نظرية الدليل اللساني عند دو سوسير (طعمة، 124-128)؛ إذ تركز الدلالة عنده على البعد النفسي، فالعلاقة بين الدال والمدلول علاقة نفسية غير مباشرة؛ مما يجعل أثرها الذهني متبايناً من جماعة إلى أخرى، على الرغم من ثبات الحقيقة المشاهدة، ومن جهة أخرى فإن الأساس المشترك في الخطاب التواصلية هو وجود جزء كبير مشترك وموضوعي في اللغة، ذي صفة مرنة وفضفاضة بحسب التجربة العامة والخاصة لمستخدم اللغة نفسها، والجملة القرآنية تمتاز بهذه السمة الكلية الجامعة (جملة موضوعية رصينة منفتحة على احتمالات كونية لا حد لها).

لقد حاول المؤلف في هذا السياق تأكيد الارتباط العضوي التاريخي بين ثلاث مركزيات، هي: مركزية العربية الكونية ضمن مركزية اللغة الإنسانية أصلاً ضمن مركزية كونية للقرآن الكريم. ويمكن تدبر التصنيف المفاهيمي للكلمات القرآنية باعتماد معناها اللغوي الوضعي الفصيح أو معناها العرفي المتداول زمن النزول، أو بمعناها القرآني الجديد المكتسب في سياق القرآن الكريم، أو معناها المفاهيمي الأوسع مما يستدعي منهجية خاصة في التعامل مع هذه المفردات في سياق التلقي القرآني، معتمدة شبكة دلالية مفاهيمية تخص المعجم الخاص بالقرآن الكريم، (طعمة، 129-132)، ويتضمن هذا المبحث - أيضاً - حديثاً مهماً حول إثبات الخلق لله - عز وجل - والموجب لتوحيد الألوهية و الربوبية معاً، والمقتضي للعبادة بإطاعة أمره في عالم الشهادة، وحديثاً مؤسساً منهجياً ومعرفياً عن ظاهرة الإعجاز العلمي للقرآن الكريم بوصفه ظاهرة فريدة من نوعها من جهة استيعابها للكون، و على الرغم من كثرة المطاعن في الإعجاز العلمي القرآني فإن المؤلف يثبت ويؤمن بأن الله ما فرط في الكتاب من شيء، حاملاً هذا القول المعبر

عنه بصريح القرآن على الحقيقة التي لا مجاز فيها، فاهماً الآية على ظاهرها، ومن دون تأويل؛ مما يجعل من الإعجاز العلمي حقيقة صارخة يتوجب الإيمان بها من وجهة نظر المؤلف (طعمة، 137-138).

كما يؤكد المؤلف اتسام الصياغة القرآنية المعجزة للمفاهيم بكمال التخيل المحقق للديمومة النصية للمفاهيم القرآنية، القائم على مرتكزات ثلاثة، هي: أ- التخيل الحسي، ب- التجسيم المعنوي، ج- المفارقة، فأما التخيل؛ فقد اعتمد القرآن أنماطاً عديدة منه؛ مثل: التخيل بالتشخيص، والتخيل بتحريك الصورة، والتخيل بالحركة السريعة المتتابعة، والتخيل بالحركة المتخيلة، والتخيل بتحريك السواكن، وأما التجسيم؛ فقد أنجز من خلال تجسيم الذنوب، وتجسيم الحالة النفسية، وتجسيم الحالة العقلية والمعنوية ووصف المعنوي بالمحسوس، (طعمة، 140-146) وضرب أمثلة على المعنوي من خلال المحسوس، والتجسيم لميزان الحساب في الآخرة، كما بين المؤلف سبيل الجمع بين التخيل والتجسيم في سياق قرآني واحد، وهنا نجد التصوير جامعاً للمعنوي المجرد في صورة الجسم المحسوس، ثم التخييل لحركة هذا الجسم الناشئ من خلال شعاع التعبير على حد وصف سيد قطب (سيد قطب، 83)، كما يعتمد القرآن نمطاً تصويرياً آخر لبناء المفاهيم هو المفارقة بنوعها اللفظي والتصوري؛ فأما المفارقة اللفظية فتبنى على الجمع بين ظاهر مفهوم مباشرة على إطلاقه، ثم يقيد السياق الاستعمالي ليدل على عكسه كدلالة لفظة "البشرى" على العذاب بقيد السياق، وأصلها الوضعي المتعارف عليه في استعمال الفصحاء الدلالة على ما فيه خير قصد إيقاع فعل السخرية والتهكم والتوبيخ المفضي إلى هذا العذاب، وفي هذا السياق يطنب المؤلف في ضرب الأمثلة التوضيحية شواهد على صحة دعواه، متأثراً فيها بما اختطه محمد العبد في دراسته "المفارقة القرآنية"، ولعل من أبرز تلك الأمثلة الداعمة للمفارقة اللفظية القرآنية توظيف السياق القرآني لألفاظ متقارنة؛ مثل: نفحة من العذاب، ظل من يحموم، المس... إلخ، وأما المفارقة التصويرية؛ فقائمة على التجسيم المعنوي الخادم لأصالة التوجيه الذهني للمفاهيم بالإضافة إلى عنصر التجدد الكوني المعين لها في حيز الإدراك الحسي لدى البشر على حد تعبير محمد العبد (العبد، 212).

وميز المؤلف بين خمسة أنواع من المفارقة التصويرية هي : أ- الإخبار عن التصور إخباراً صريحاً، ب- حكاية قول الضحية، ج- المقابلة المباشرة بين قولين، د- المقابلة بين فعلين أو سلوكين، هـ- الاستفهام التعجبي و الإنكاري التويخي، مستصفاً شواهد عرضها العبد في دراسته السالفة، مع دعمها بحجج بيانية مستقاة من تفاسير الأصفهاني والزرکشي و العسكري وغيرهم (طعمة 148-158).

إن عناصر التخيل والتجسيم والمفارقة -فيما بينه المؤلف -عماد التمثيل الذهني و اللساني المتكامل عرفانياً لأجل بلورة المفاهيم الوجودية، وهو تكامل له محل عصبي من الاشتغال التكويني في نسج الدماغ، مشتملاً على عمليات ذهنية وسيرورات عرفانية متداخلة ومعقدة، تنتج آليات لفهم النص القرآني وخطابه الكوني المفتوح على اللانهائي من المعاني (طعمة، 159).

ينغلق باب الإجراء في هذا القسم على محاولة تبيان التعاضد بين البنية التركيبية والوظيفية النحوية في توجيه مفهوم الآيات من خلال مناقشة طبيعة المعاقبة (النقل) من حيث كونها ظاهرة أسلوبية حرة، ووظيفتها في فعل التأويل من حيث كونها ظاهرة تركيبية قائمة على الإنابة والتضمن والإغناء (طعمة، 161). كما عرض في السياق ذاته إلى ظل المعنى المفهومي من خلال تتبع مسار العلاقات النحوية في التركيب القرآني، مستشهداً لها بما عرضه تمام حسان في كتابه الخواطر والبيان في روائع القرآن.

مما قدم المؤلف -أيضاً- على مآدبة التأويل القرآني المفاضلة بين التقديرات المختلفة، مستصفاً أمثلة ثلاثة مخيرة من كتاب " الدر المصون " ل: السمين الحلبي، وقد كان هذا اللغوي راداً للتقدير الذي لا يستوفي المعنى المراد و القصد من الخطاب (طعمة، 165)، ويتصل بهذا التمثيل تمثيل قرآني آخر يوضح ما ذكره إمام النحاة في باب ما جرى مجرى الفاعل المتعدي فعلة إلى مفعولين في اللفظ لا في المعنى من جهة التوسع (سيبويه، 1/ 175)، وتحديد المعنى بحسب تعلق الجار و المجرور بأحد الفعلين، وينهي المؤلف تطبيقه بحديث ممثل ومختصر للحال الموطئة ونظيرتها المؤكدة، مستعرضاً بعض آراء النحاة فيهما (طعمة، 167-169).

يمكننا التوقف مع نهاية قراءتنا لهذا الكتاب عند أهم التوصيات التي ذيل بها المؤلف بحثه بعد رحلة البحث في المعنى من جهة التصور والإدراك و التأويل، ولعل أهمها (طعمة، 170-171):

- 1 - ضرورة إنجاز دليل مرجعي للتفسير القرآني يتيح من علوم عديدة لغوية وبيانية و عرفانية وعصبية محققاً صفة التداخل الاختصاصي .
- 2 - أهمية الإسراع لإنجاز معجم قرآني قائم على شبكة معرفية دلالية للمفاهيم القرآنية الخاصة في ضوء كونية الدلالة اللفظية القرآنية .
- 3 - أهمية تأسيس مواقع على الشبكة وظيفتها التأسيس لأنطولوجيا الفهم القرآني، مدعمة ببرامج حاسوبية تستثمر معطيات الذكاء الاصطناعي، لتمكن المتلقي من التفاعل الذهني والعصبي الآني مباشرة مع العوالم الخفية للخطاب القرآني، للعيش لحظة فلحظة فيها، إنه نوع من المشاريع المعتمدة على الخيال العلمي، والممكن تحقيقها، متلبسة بسحرية صوفية ظاهرة، وبرنامج تأويلي شبيه بلعبة ثلاثية الأبعاد، إن صح تعبير المتلقي!

لقد اعتمد المؤلف في سبيل تشييد رؤيته التوفيقية بين ما هجس به تراث الأوائل من أفكار عرفانية وما شيدته اللحظة العلمية الحديثة جداً من نظريات عصبية وإدراكية -لسانية، لفيماً من المصادر والمراجع الأصيلة الورقية والإلكترونية بالعربية والإنجليزية والفرنسية، تم في تنوعها وحدثتها عن توسع في الاطلاع ورغبة جامحة في بناء نسق معرفي عربي بيني يدفع بالعلوم اللسانية والبلاغية العربية نحو آفاق نظرية وتطبيقية مواكبة للتقدم العلمي العالمي الحديث ضمن مشروع حضاري كوني مركز الضبط فيه الظاهرة القرآنية، إلا أننا نراه يسقط أحياناً في فخ الإسقاط المعرفي المغيب للفروق الحضارية، والمنصف للخطابين العربي والغربي لا يمكنه أن يتجاهل قيمة الأنظار القديمة، لكنه أيضاً لا يمكنه أن يتعلق بها إلى الحد الذي يجعله ذاهلاً عن محدودية علميتها قياساً بالنظر العلمي المعاصر.